لمستلزمات ليست من طبيعته ! اذا تركنا جانبا قضية الاختيارات فاننا نصل الى انطباعية تريد ان تتجاوز اطاراتها المحدودة جدا لتحاول الايحاء باحاطة شاملة للموضوع . ففي نقاشه لشعر محمود درويش يبدأ قائلا « لا يتميز محمود درويش بأسلوب خاص » ثم ينتقل بسرعة الى دراسة سيكولوجية الشاعر بعد خروجه من الارض المحتلة، تاركا للنصوص حرية واسعة في الحركة . ان الوقوف أمام تعميمات لها هذا الطابع الشامل دون دعمها بقراءة دقيقة ، تسيء الى النقد والى الدور الحقيقي الذي يستطيع ان يلعبه . فأسلوبية درويش أو غيره من الشعراء العرب ، ليست فقط قضية لها علاقة عضوية بموضوعاته . انها الموضوعات نفسها . واذا كان لبعض تحليلات محفوظ من قيمة حقيقية فهو لانها لا تفصل بشكل تعسفي بين الاسلوب والمضمون ، بل تدرسها بشكل متداخل. يستتبع هذه الملاحظة الاولى جملة من الملاحظات : فوضع الشعر الفلسطيني في اطار العلاقة مع العدو لا تكفي وحدها لفهم محاور هذا الشعر. انه بحاجة الى المناقشة من خلال تاريخه، وعلاقته بالشعر العربي . وهذه النقطة غائبة ايضا بشكل كامل . فمحفوظ يكتفي بوضع هذا الشعر في اطار المواجهة مع العدو ، ليسمح لنفسه بعد ذلك بتحليله من خلال هذه الارضية المفترضة .

أما في مناقشة شعر الشعراء الفلسطينيين الشباب (أبو خالد ، دحبور ، سيف) فاننا نقع أمام تعسفية نقدية لا نجد لها مثيلا . النقد هنا هو مجرد انطباع اولي . « فقيمة وليد سيف ضعيفة اجمالا مع استثناءات قليلة » . هذه الاجمالا ماذا تعني وكيف نستطيع ان نقبضها . فاذا كان النقد يفتح ابواب النص فانه لا يستطيع ان يقوم بهذا العمل بشكل سريع كما هي الحال هنا . واذا كانت هذه المرحلة « التي يتطلب ابناؤها من الفنانين ليس الاعمال الفنية بل المعونة » . فما هو المطلوب من النقد ؟

أما في مناقشته لادب كنفاني ، فاننا نحس المحاولة النقدية المخلصة التي تريد الوصول الى النص لربطه بالواقع . فمحفوظ يقسم انتاج كنفاني بحسب مراحل النضال الفلسطيني . انه انتاج يتداخل مع الثورة الجماهيرية بشكل لا يماثله الا تداخل كنفاني المناضل مع قضية شعبه الوطنية الى الدرجة التي وصل فيها الى قمة اللقاء بالارض عبر الانفجار في داخلها . لكن الغائب الكبير هنا هو مناقشة تطور بنية الرواية الكنفانية . هذا التطور الذي تعادل قيمته على الاقل التطور الاخر في طرح الموضوعات الكبرى الملاحق لتطور القضية نفسها . ولو قام محفوظ بدراسة علاقة هذا التطور بالادب القادم من الارض المحتلة — اميل حبيبي — لقدم لنا لوحة متكاملة نسبيا عن الرواية الفلسطينية المغروسة على حافة حد السكين . لكنه توقف امام ابواب هذه الاحاطة الممكنة دائما .

انطلقت معالجتنا لهذا الكتاب من تثميننا للدور الهام الذي يستطيع ان يلعبه النقد الخارج من داخل المعايشة الابداعية لذلك حاولنا ان نبدي مجرد ملاحظات حول كتاب يشكل الى جانب أبعاد الموضوعية والوثائقية . بعد شهادة . فهو أحد الكتب القلائل الذي لا يزال يصر على نقطة المنطلق (مجلة شعر) بعد ان اختفى « مركز الحركة » كما يقول محفوظ . لذلك هو على حق حين يصف كتابه بأنه وليد مرحلة انتهت . لكننا نستطيع ان نطرح على هذه المرحلة بعض الاسئلة . فلماذا وضع ذلك المقطع القصير عن شعر السبعينات (بركات ، العزاوي ، سعادة) فهو لا يقدم نقديا رؤيا جديدة ، ولا يسمح لنصوص الشعر الجديدة ان تتنفس بحرية . عدا عن ان هذه الالتفاتة تهمل وعلى غير حق الكثير من التجارب الشعرية التي ظهرت في العراق (مجلة الكلمة) وتمركزت في مجلة (مواقف) . هل يستطيع الجزء الثاني من هذا الدفتر ان يعيد النظر في معاملة هذا الادب « الجديد » الذي لم يتبلور بشكل نهائي بعد ؟

حين يضع النقد نفسه في داخل مسائل النضال الوطنية والطبقية ، فانه في الواقع يقوم بمغامرة كبيرة . اذ ان تجاوز السائد لا يتم داخل الحركة الثورية بشكل سحري . انه نتيجة ارهاق في سبيل ابراز وانتاج ما يريد السائد طمسه ومسحقه دون ان تتحول الى مجرد دعاية سياسية لا قيمة لها . لذلك تبدو بشائر المرحلة المقبلة بالغة الصعوبة . فالمخاض الجديد يريد ان يتجاوز الاطارات القديمة — التحديث — ليصل الى الثورة .

الياس خوري